الربع الخالي

THE EMPTY QUARTER

تأليف الشيخ عبد الله فلبي

للأديب محمد عبد الله العمودي

المستر سنت جون فلبي ، صديق العرب وخليفة لورنس ، يعدُّ من أبرز شخصيات الاستشراق في العالم العربي

اتصل بالملك ابن السعود فأحبه وأخلص له ، ورافق البدو في البوادي كثيراً فبهرته عظمة الصحراء فارتادها ، وتقلب في كثير من أقاليمها ، وتكاد آثاره تنحصر على قلب البلاد العربية حيث الملك ابن السعود وأقوامه الوهابيون .

له مؤلفات جليلة ، ومجهودات جبارة ، عرَّف فيها عالم الغرب بشعب العرب الفتيّ الناهض وقائدهم الأعظم

وهذه المؤلفات هي المرجع الوحيد لمن يبتغي تاريخ نجد ، وحركة « الاخوان » الأخيرة ، وكلها باللغة الانجليزية منها :

« قلب جزيرة العرب » و « بلاد الوهابيين » و « تاريخ بلاد العرب » و « الربع الخالي » أخيراً . . .

وهذا السفر الذي نحن بصدده يعد بحق من أروع الأسفار وأخلد الآثار ، وأدهش الأخبار ، وإلا فهل يخطر ببال أحد أن هذه الصحراء العربية التي طالما تهيبها الغزاة ، وارتدت عنها أنظار المستكشفين ، يقتحمها المستر فلبي فيبرز لنا عالماً مجهولاً ، وبقعة مسحورة ؟ !

هذا الربع الخالي يقع بين حضرموت ونجد ، واليمن وعمان ؛ وهو عبارة عن مفازة عظيمة ، واسعة الأكناف ، مترامية الأطراف تتناوح فيها الرياح ، وتدوى بها الأعاصير ؛ وللبدو فيها خرافات وأوهام يحار المرء في صحتها كقولهم بوجود قصور قائمة ، وعيون جارية ، ومدن مطمورة تحت الرمال ! وما إلى ذلك من غريب الأخبار . . . والمؤرخ في مثل هذه الحال لا يمكنه أن يرفض كل أخبار هذه البقاع لما عُلِم من أنها كانت آهلة بالعمران والسكان في عصور واغلة في القدم ... وما نعلم أحداً طعن في هذه الرمال وكتب عنها تقارير قيمة ، وأبحاثاً لها أهميتها في عالم الكشف سوى ثلاثة من الأوربيين هم : برترام توماس[1] ، وجيزمان[2] والمستر فلبي أخيراً . . .

وكتبهم هذه لا تتعدى المشاهدة والملاحظة التي مرت بهم في أثناء سيرهم في طريق خاص ، بل في طريق مأهول . فياليت شعري ما علم المناطق المجهولة التي لم تطأها حتى أقدام البدو من أبنائها ؟ ؟

ومهما كانت الاحاطة محدودة وضيقة بهذه البقاع فإن المستر فلبي قد نشر لنا صفحة من صحفها المطوية ، وصورة من صورها الغامضة ، وقفنا على الشيء الكثير من أسرارها وخفاياها

وأمنيته في اختراق هذه الآفاق تعود إلى سنة ١٩١٨ حتى تحقق حلمه في عهد الملك ابن السعود بعد أن أخذ عليه إقراراً كتابياً أنه غير مسؤول إذا ما لحقه سوء في الطريق ؛ فأمضى المستر فلبي وتوكل على الله . وانحدر من (الهفهوف) أو (الهفوف) بإقليم الحسا في عشرين رجلا و ٣٢ جملاً محملة بالماء والزاد والمتاع واستغرقت رحلته أكثر من شهرين ، اخترق الجنوب ثم انعطف نحو الشمال حتى بلغ (السُّلَيِّل) من أعمال (نجران)

ومؤلفه هذا يقع في ٤٠٠ صفحة من القطع المتوسط ، وحلاه بصور رائعة تمثل مناظر ذلك العالم المجهول . وقد قسم كتابه إلى ثلاثة أقسام ؛ الأول يشمل صحراء (جافوره) و (جبرين

(١) Arabia Felipi

(٢) in unknawn Arabia

وهاتان المنطقتان تقعان جنوب الحسا فيهما عيون ونخيل ، وهجر « للاخوان » ثم تليهما إلى الجنوب منطقة (الرمال) وهى عبارة عن مفاوز ذات سطح متموج ؛ ويأتى القسم الثالث وهو « الربع الخالى » ويمضى المستر فلبى ويصور لنا شبحه المخيف كما يتصوره البدو وكيف يبتلع الأرواح ، ويدفن الأشباح ! وبعد هذا القسم فى نهاية الكتاب تأتى شذرات قيمة ، وملاحظات دقيقة ، لبعض العلماء الطبيعيين فى المتحف البريطانى بلندن عن النيازك التى سقطت فى بقاع الربع الخالى ، وعن أنواع غريبة الشكل من الطيور والحيوانات والحشرات ، ومن الأخيرة جمع صناديق قدمها للمتحف البريطانى . . .

والقيمة العلمية لهذا الكتاب يلمسها المرء فى ثنايا السطور ، فهو يرسم لنا مناظر خلابة للصحراء ، والأشياء المتصلة بمظاهر بادية تصويراً طبيعياً ، قريب الانتزاع ، صادق النظرة ، من صف الاطلال التي مر عليها ، ومراتع الوحوش التى أبرد فيها ، آفاق البادية المجلوة التى كانت من أمتع المناظر ساعة الأصيل !

وقد أفاض فى حياة الأفراد والجماعات التى تعيش في ذلك عالم المجهول وأخصهم « بنى مرة » و « المناصير » فعرض ياتهم البسيطة الساذجة ، ومراعيهم المتجهمة المتناثرة فى عرض صحراء ، وكيف أنهم يعتمدون فى قوتهم على لحوم الغزلان لوعول والأرانب التى تكثر فى تلك البرارى . . .

وفى هذا الكتاب يكشف لنا المؤلف عن ناحية سياسية هولة بين حضرموت ونجد ؛ فمن المجزوم به أن القبائل الحضرمية اخمة لحواشى الربع الخالى من الصعب عليها الاتصال والامتيار بلاد نجد ، لوجود هذه الفلاة الفاصلة ، ولكن المؤلف يميط ام ، ويرفع الظن ، ويعلمنا أن صلات القبائل الحضرمية فى بال وأخصها الصيعر والعوامر والمناهيل متينة بالبلاد النجدية، ابن السعود سلطة نوعية على هذه القبائل ، فقد روى المؤلف ص ١٠٣ حادثة (سيف ابن طناف) شيخ مشايخ المناهيل (حضرموت) وكيف فاض إلى نجد من أقصى حدود حرموت ومعه هجين من الأصائل ليقدمه لابن جلوي حاكم ما السابق دليلا على الولاء والخضوع !

ومن عجيب ما حدثنا به المؤلف فى ص ١١٦ أنه بينما كان س خلال بعض النياض يطارد الجملان لاحظ سائلاً زهري اللون يسيل على لحاء إحدى الشجيرات ؛ فتبينه فوجده مادة صمغية تشبه تلك المادة التى أنزلها الله فى البرية على بنى اسرائيل ليقتاتوا بها عند رحيلهم من مصر وهى « المن » الواردة فى القرآن الكريم في قوله تعالى (وأنزلنا عليهم المن والسلوى) . وقد ذهب العالم الاسرائيلى الدكتور يهودا إلى أن هذه اللفظة مصرية قديمة بمعنى (لا نعرف) وذلك أنه لما خفى أمرها على بنى اسرائيل ، ولم يدركوا حقيقتها وكنهها كسوها هذا اللفظ الذى معناه في المصرية ما تقدم . ويزيد هذا العالم أن هذه اللفظة لا تزال شائعة الاستعمال فى اللسان العبرى الدارج : فهل لأستاذنا الدكتور ولفنسون أن يتكرم باماطة اللثام عن أصل هذه الكلمة ومصدر اشتقاقها ، وشجرة المن وما ورد عنها فى الآثار اليهودية ؟

ويمضى المستر فلبى ويصف لنا الشيء الكثير من القصور المتهدمة ، والآثار التى تشير إلى الماضى السحيق وخاصة فى منطقة جبرين [1] ، كما عثر هناك على حلق مفكك ، وخرز مبعثر هنا وهناك ، وشظايا خزف ، وجرار مدفونة فى الرمال !

ويعجبنا من المؤلف أنه كان فى أثناء الرحلة حركة فعالة ، فقلما ترك فرصة إلا وشغلها فى البحث والتنقيب ، خلال الأشجار وثنايا المخارم ، وادعاص الرمل ؛ وكان فى سيره لا يسابر القافلة بل كان فى اتجاه آخر يتعثر بين انجاد الفلاة وأغوارها ، علّه يقع على جديد ، أو يتوصل إلى شيء غريب ، وقد كان له ما أراد فقد وضح لنا أن منابت الربع الخالى لا تنبت إلا العبل والعندب والعلقة والبركان والمرخ والحمض والغضا والحرمل والسمر والسرح ، وهذه النباتات يقتات بها حيوان ذلك الاقليم وتساعف الجمال فى رحلاتها الطويلة الشاقة . ومن أدهش ما حدثنا به المؤلف أنه توجد فى تلك الصحارى الغبراء مروج مخضلة ومناظر ساحرة ، لمسارح الابل ، ومراعي الشاء !

ولعل الظاهرة الطبيعية في ذلك البلقع من الأرض ، هي الرياح فقد كانت شديدة الدوى ، قوية الاعتكار ، ومع هذا فلها موسيقى عذبة ، ولحن مطرب ، ترنحت لها أعطاف الشيخ عبد الله وخال نفسه فى الـ music hall وذلك عند ما اعتلى قوزاً من الأقواز ، وكانت الرياح تصفر حواليه ، وهناك استرعى انتباهه لحن عذب ، ظنه لأول وهلة صادراً عن أحد رفاقه ، ولكن تبين له أخيراً أنها أغان مبعثها الرمل Singing Sands وقد

(١) هكذا يضبطها المؤلف بالجيم المدمجة ، مع أنها فى كتب الأدب بالياء المثلثة ولعل للهجات القبائل دخلا في هذا من إبدالهم الياء جيما وبالعكس كما هو مشاهد فى حضرموت .

لستكتب المؤلف أحد العلماء الطبيعيين عن أسبابها فى فصل أدرجه فى خاتمة الكتاب

وهذه الرياح الهوج كانت من أكبر الصعاب فى عرقلة سير الاستكشاف ومضايقة المؤلف فى أبحاثه ، فهو يحدثنا فى ص١٨٨ كيف ثارت الطبيعة ، فعصفت الرياح ، وانبعثت الأعاصير ، فزعزعت المضارب وحطمتها ثم استوى عليها الرمل وما أخرجوها إلا من بطن الأرض

وهذه الظاهرة ليس للشك فيها مجال ، فكثيراً ما سمعنا فى حضرموت أن الرجل يقف فى وسط هذا الرمل فما تمضى عليه خمس دقائق حتى يصير مغروزاً فيها ؛ والحضارمة لا يسمونه إلا « البحر الساقى ! »

ويمضى المؤلف ويصف لنا الآبار فى هذه الأصقاع ، فيحدثنا أنها كثيرة جدا ، وما على البدوى إلا أن ينبش الأرض على بعد بعض قوائم ، فيرى الماء وقد نزا من جوفها ! وحفظ هذه الآبار من سفى الرياح غريب ، فيقول إن البدو يغطون أفواهها بالجلود العريضة وأغصان الشجر ، وهم على اتفاق تام على رعاية هذه المصلحة العامة فى جميع تطوافهم

وعند ما دخل المؤلف منطقة (شنّة) ص ٢٢٨ تراءت له منبسطات من الرمل محاطة بكثبان تكون شكل بحيرات وأخرى منها مستطيلة ، أدى بحثه إلى أنها بحيرات كانت موجودة من العصر الجيولوجى الثالث ، وكانت تتدفق اليها الأنهار من شتى أنحاء الربع الخالى ، حاملة الطمى معها ، ثم لم تلبث هذه البحيرات أن جفت وفاضت عليها أنفاس الرياح فغمرتها بكثبان الرمل !

ويظن المستر فلبى أن بلدة (شنة) لا تبعد عن البقعة التى كان وادى الدواسر يصب مياهه فيها فى الأعصار القديمة ؛ ويعزز رأيه بأن حفافى تلك البحار لا تزال محسوسة حتى هذه الساعة فى الأجراف التى تعود إلى العصر الميوسينى فى طرقات (جيبان) وأفاض المؤلف فى هذه الظاهرة الجيولوجية العجيبة التى خرجنا منها بأن بقاع الربع الخالى كانت آهلة فى عصور سحيقة بالسكان والعمار ، وكانت حضرموت وظفار وجبال القرا ، بل الشاطئ الجنوبى من الجزيرة العربية مغموراً بالمياه ؛ وكانت وديان الدواسر وتثلث وحبونة وسحبة وبيشة أنهاراً تصب مياهها فى رحاب الربع الخالى ؛ فلما جفت هذه الأنهار ، وأضحت وديانا كما هى اليوم انحسر الماء عنها فخلت تلك البقاع فلم يبق فيها إلا هذه الآثار من الأصداف وأحجار البحر ، وفضلات الزجاج ، والصخور الغريبة التى شاهدها المؤلف وشحن منها صناديق . وقال عن وادى الدواسر إنه أعظم الأنهار القديمة ينحدر من جبال عسير واليمن فيمر على (دام) و(السُّلَيِّل) فيلقى بنفسه فى أحضان الربع الخالى !

وهذه النظرية المحيِّرة لم يقل بها المستر فلبى وحده ، بل فطن لها كثير من علماء الجيولوجيا كاطبرون والعالم الإيطالى كاتانى دانيانو ، إذ يعتقدون استناداً إلى الأدلة الجيولوجية أن الجزء الجنوبى من بلاد العرب كان فى يوم ما مزدهراً بحضارة عظيمة تعود إلى ماقبل التاريخ ، أيام كانت هذه البقاع تأهل بأقدم أمم الأرض وأشدها قوة من بنى عاد . . .

وهذا السفر الجليل الذى خدم فيه المؤلف العرب لم يسلم من بعض الهنات ، من ذلك ما جاء فى ص ٧٧ عند الكلام على قبيلة « المناصير » فقال ، استناداً إلى ضعف رواية ، إنها قبيلة كانت تدين بالمسيحية واسمها يدل عليها !

وفى ص ٧٨ تكلم عن أجود أنواع الابل ، فقال إنها الابل التى تنتمى إلى قبيلة (آل بوشامس) من قبائل عمان ، وهذه القبيلة لاتعد من المسلمين ! بل تنتمى إلى المذهب الاباضى ، ولهم صلاة عجيبة !

وهذه شطحة من (أخينا الشيخ عبد الله) ، فالاباضية فرقة من فرق الاسلام !

وفى بقاع الربع الخالى يوجد حيوان من نوع الماعز يسميه الأهالى « الوضَيْحى » وقد أطلق المؤلف عليه اللفظ الأفرنجى Oryh ، وهذه اللفظة لا تعنى إلا (الوعل) وهو يختلف عن « الوضيحى » فى انتصاب قامته ، وتقوس قرنيه مع انتظام عقد عليهما ، وهذا الحيوان يوجد بكثرة فى جبال حضرموت ، أما الوضيحى فيظهر أن اسمه العلمى Antelope

وفى الكتاب نبذة عن رملة (وبار) الشهيرة إذا ساعفتنا الظروف نقلنا منها شيئاً لقراء الرسالة

وأخيراً ، لا يسعنا إلا أن نهتف هتاف المعجبين بهذا المجهود الذى بذله المستر فلبى فقدم للعرب خدمة تذكر له أبد الدهر

محمد عبد الله العمودى
بدار العلوم

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى بعمارة عجيم رقم ٧ ﴾